رسالة الجاحظ

فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

للأستاذ محمود عزت عرفه

الجاحظ أمة فى الأدب وحده ، وعالم محقق لا يسبر له غور أو يدرك لاتساع فطنته مدى . وهو إلى جانب موسوعاته التى كشفت عن غزارة ذهنه ورحابة عقله ، قد ترك لنا مجموعة رسائل يمكن أن نعدّها فى باب الموجزات بالقياس إلى تصانيفه التى يطول فيها استطراده وتتسع منادح تفكيره

ولكن إيجازه فى هذه الرسائل غير مقصر بها ولا مخلّ ؛ إذ تعالج كل منها موضوعاً قائماً بنفسه فى إحاطة لا تترك وراءها فراغاً أو نقصاً ، واستيعاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ومن هذه الرسائل رسالة عنوانها : فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة[1]

وإنها لآية من آيات الجاحظ ؛ تقفنا من تفكيره على صورة جميلة ، وترسم لنا خطوطاً واضحة المعالم لبعض وجوه تصرفه فى الكتابة والتصنيف .

وهو يبدو فى هذه الرسالة عظيم الاحتفاء بشئون السياسة على عهده ، قوىّ المساهمة ، بقلمه وبذهنه ، فى خدمة قضية يراها جديرة بأن يعمل لها ويسعى فى سبيلها .

وقد بعث الجاحظ بهذه الرسالة إلى الفتح بن خاقان صاحب المتوكل ونديمه المصطفى فى حياته ، والذى قاسمه مصرعه الرهيب فيما بعد على يد المنتصر ابنه وولى عهده ...

على أن الرسالة لم تكتب فى ذلك العهد ، وإنما كتبت أيام المعتصم ثامن خلفاء بنى العباس ؛ ولم يتهيأ للجاحظ أن يبلغها إليه فبقيت حبيسة طيلة عهده ، ثم مدة الواثق من بعده ، حتى تهيأ لها الظهور أخيراً فى أيام المتوكل . والجاحظ نفسه يشير إلى هذه الحقيقة كما سنرى ذلك فيما بعد . ولكن الذى يعنينا الآن هو التحقق من بواعث تحرير هذه الرسالة ، ثم النظر فى أسباب احتباسها طيلة هذه الفترة حتى ظهرت فى عهد المتوكل . وما من ريب فى أنه كان للعوامل السياسية أثر قوى فى كل هذا فما الذى دفع الجاحظ أولاً إلى كتابة هذه الرسالة ؟

لقد تولى المعتصم الخلافة بعد أخيه المأمون ، وكان مثله ممن يقدر النبوغ ويحتفل بالمواهب حيثما ظهرت ، فانفسح مجال التفوق فى دولته أمام العناصر غير العربية . على أن نزعة المأمون كانت علمية كما هو معروف ؛ أما المعتصم فكان شجاعاً باسلاً رب سيف ورمح ، لا قلم ولا كتاب . كان «الخليفة الأمى» كما وصف نفسه فى كثير من الصدق ، ولكنه تفرد إلى جانب ذلك بصفات سامية فى البأس والشجاعة ؛ فكان فارس بنى العباس المعلم ، وأضرب رجال دولتهم فى البطولة بسهم

ولقد استكثر من غلمان الأتراك فى جيشه ليتقوى بهم على الخراسانية الذين نهضت على أكتافهم دولة المأمون ، واستقدم كثيراً من أبناء فرغانة وأشروسنة ليستعز ببأسهم على من كانت تموج بهم بغداد من مختلف طوائف الجند بين عرب وأبناء[1] وموال وخرسانيين

وما نشك فى أن الجاحظ كتب رسالته على هذا العهد متشيعاً بذلك للخليفة وحزبه . ولقد كان الجاحظ أديباً موهوباً محظوظاً ، وقل فى الأدباء من يجمع بين هاتين الفضيلتين . كان يحب أن يستفيد ، ثم هو يعرف كيف يستفيد ؛ ولكن تطور الأمور ألجأه — برغمه — إلى أن يحبس رسالته حتى حين ، إذ كان التنافس قد اشتد وقتئذ بين هذه الطوائف المختلفة فى أجناسها وجبلاتها ، المتباينة فى أطماعها وفى أهوائها . وتطورت الحال إلى أكثر من هذا ؛ إلى اصطدام دموى عنيف ، وفتنة هوجاء جامحة ، حيكت فيها الدسائس الخفية والظاهرة ، ودبرت الاغتيالات المحققة والمبطلة ، فطاحت رؤوس ، وأهدرت دماء ، وهاجت أوشاب من العامة بإيعاز من رؤوساء الأجناد ، وائتمرت الطوائف جميعاً بالأتراك الذين خصهم الخليفة بإيثاره ، وبوأهم رفيع المناصب فى دواوين حكومته وتكنات عسكره

---

(١) يسميها ياقوت : كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك أنظر ترجمة الجاحظ ج ١٦ ص ١٠٧ من معجم الأدباء

(١) الأبناء قوم من العجم كانوا يسكنون بلاد اليمن ، ويرجع أول عهدهم بها إلى عام ٥٧٦م حين استنجد سيف بن ذى يزن الحميرى بكسرى أنوشروان ضد غزاة بلاده من الحبش ، فأرسل معه « وهرز » على رأس جيش احتل به صنعاء وطرد الأحباش . وقد بقيت للفرس السيطرة على هذه البلاد حتى ظهر الاسلام واعتنقه أهلها عام ٦٣٢م (١٠هـ)

وينبغي هنا أن نشير إلى بعض الوقائع الثابتة لتمثل الحالة التي سادت البلاد في ذلك العهد تمثيلاً أقرب إلى الوضوح.

١ — كان الأفشين[1] من أشهر قواد المعتصم الأتراك ، وقد أبلى البلاء الأعظم في الحروب التي اشترك فيها دفاعاً عن حوزة الخلافة ، وبسطاً لسلطان الدولة في عصرى المأمون والمعتصم . ولكنه لم يكن مع ذلك خالي النفس من كراهية العرب ، والتسخُّط على منافسيه من أفرادهم وأعيانهم . ولقد كان حسده للقائد العربي أبي دُلَف (القاسم بن عيسى العجلي) أمراً مشهوراً ؛ حتى لأشهد عليه مرة بجناية وقتل ، وأزمع أن يقتص منه ، لولا أن بادر أحمد بن أبي دُوَاد[2] كاتب المعتصم ومشيره فأدركه قبل نفوذ الأمر فيه ؛ وأنذر الأفشين أن يصيبه بسوء ، ثم رفع القصة إلى الخليفة ، فاستحسن سنيعه في المبادرة بإنقاذ أبي دلف ، وعنف الأفشين على ما كان قد وطد العزم عليه ... ولم يلبث هـذا القائد — وهو من هو ضراوة وسوء معتقَد — أن حاول الاستقلال فسقط رأسه أشروسنة ، فانكشف أمره على يد عبد الله بن طاهر الأمير العربي في خراسان وكان في ذلك مهلكه ونهاية شأنه . ونذكر هنا بعض ما قاله أبو تمام من قصيدة يسجل فيها حادث إحراق الأفشين وصلبه :

ما كان لولا قبح غدرة (حيدر) ليكون في الإسلام عامُ (فجار)

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى

ناراً يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق إزار

مشبوبة رُفعت لأعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للسارى

صلى لها حيًّا وكان وقودَها ميتاً ، ويدخلها مع الفجار

٢ — كان عجيف بن عنبسة من قواد الأتراك الناقمين على المعتصم بعض تصرفه — ورضى الناس جميعاً غاية لا تدرك — وكان قد صحبه في حصار عمورية (عام ٢٢٣ هـ) . وهناك أوغر صدر العباس بن المأمون حتى أطمعه في قتل عمه . ودخل معه في ذلك جماعة ممن انطوت نفوسهم على الكيد للمعتصم وترَبُّص الشرِّ به .

ولكن الخليفة اطلع على سر هذا التدبير ، فقتل عجيفا ومن مالأه ؛ وحبس العباس ابن أخيه حتى مات من وطأة الضر وفرط الأذى ...

٣ — ومن تدابير الكيد في ذلك العهد ما أوغر به القوم صدر المعتصم على خالد بن يزيد الشيباني أحد ولاته من العرب حتى أزاله عن ولايته وطالبه بأموال جسيمة ؛ فلم يجد من يشد أزره في هذه المحنة إلا أحمد بن أبي دواد[1] الذي شفع له عند المعتصم حتى عفا عنه ، وخلع عليه وأعفاه مما كان قد أمره به من الخروج منتفياً إلى الحجاز .

وفي هذا يقول أبو تمام أيضاً من قصيدة يمدح بها خالداً ويهنئه :

سيل طَمَى لو لم يذُدْهُ ذائدٌ لتبطحتْ أولاهُ بالبطحاء

وغدت بطون منًى مُنًى من سيبه وغدت حِراً منه ظهور حِراء

وتعرّفتْ عرفاتُ زاخره ولم يُخصَص كَداء منه بالإكداء

ولطاب مرتبعٌ بطيبةَ واكتستْ بُردَين : بردَ ثرىً وبرد ثراء

لا يُحرَمِ الحرمان خيراً ! إنهم حُرِموا به نوءاً من الأنواء...

تعد هذه الحوادث — وغيرها كثير — من عوامل نشوب الفتنة التي أشرنا إليها آنفاً ؛ لأن هذا التحرش بين الترك من ناحية ، والعرب والخراسانيين وسائر الموتورين من ناحية أخرى ، لم يلبث أن تحول إلى اصطدام عنيف تكررت فيه حوادث العدوان في طرقات بغداد ، واضطرب معه حبل الأمن في أرجائها ؛ حتى لم يجد الخليفة بدًّا من أن ينهض بجنده المختار إلى عاصمته الجديدة سُر من رأى ، ليحسم بذلك وجه النزاع ويهدّئ من سورات النفوس ... في مثل هذه الظروف لم يكن يتيسر للجاحظ

(١) هو حيدر بن كاوس من أبناء ملوك أشروسنة ، والأفشين لقب لهم . أما أشروسنة فهي كورة فيما وراء النهر ، بين فرغانة وسمرقند

(٢) في كتاب « إبهام الأعلام » للمرحوم محمود مصطفى : « يقول ابن خلكان دواد بضم الدال وفتح الواو . وفي القاموس المحيط في مادة « دود » وأحمد بن دواد معروف . ومن هذا يظهر لك خطأ من يهمز الواو ، وقد وقع في ذلك كثير » اهـ .

(١) يقول المرحوم الخضرى بك في محاضراته : كان في ابن أبي دواد عصبية عربية ، ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذى جعل القوة كلها لغلمان الأتراك ، الذين استكثر منهم ومن قوادهم ...